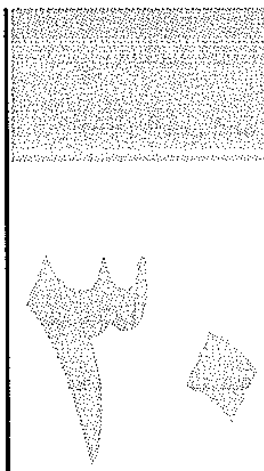

العرب وثقافتهم بعد حوادث الحادي عشر من أيلول

د.عبد النبي اصطيف(*)

اتفق أن دعيت، بعد عودتي من انكلترا في نهاية عام ١٩٩٧ حيث كنت زميلاً زائراً في مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، وكلية سانت أنتوني في جامعة أكسفورد، إلى إلقاء عدد من المحاضرات في دمشق وحلب وغيرهما من المدن السورية حول علاقتنا بالغرب ، وإلى المشاركة في عدد من المؤتمرات والندوات في عدد من الدول العربية والأوروبية حول الموضوع نفسه، وكذلك فقد استكتبت من جانب عدد من الدوريات والمؤسسات عن موضوع «حوار الحضارات»

* د. عبد النبي اصطيف: أستاذ الأدب المقارن والنقد الحديث في جامعة دمشق.

- العمل الفني: الفنان علي مقوص

وتعزيز التعاون والتفاهم بين الثقافتين الغربية والعربية. وكان الحافز الأكبر فيما بدا لي على هذه الدعوات قلق مقلقل على مستقبل هذه العلاقة وبخاصة أن صانعي القرار في الولايات المتحدة الأمريكية وبعض حلفائها في أوروبة الغربية قد فتنوا بمقولة صموئيل هنتنغتون في «**صدام الحضارات**»، وجعلوا يفكرون على نحو جدّي في جوانب هذا الصدام ووقائعه الممكنة وحصيلته المرجوة. ومع التحول الخطير الذي شهده عالمنا المعاصر في نهاية القرن الماضي من علم القطبين المتكافئين الذي ضمن قسطاً معقولاً من التوازن في العلاقات الدولية على جميع المستويات إلى عالم القطب الواحد الذي بات يغري بمواجهة «الآخر»، ما دامت هذه المواجهة ستنتهي بهزيمته واحتوائه وتدجينه والتحكم بمقدراته ومصائره، غدا التفكير في تحقيق النبوءة المشؤومة في صدام الغرب والإسلام في الوطن العربي أشبه ما يكون بكابوس مروّع ينبغي دفعه بأشد درجات اليقظة والحرص على عدم استفزاز الغرب ا لذي تقوده واشنطن الراغبة، منذ تنحى عدوّها الأقوى عن مواجهتها في أي حلبة من حلبات الصراع، في إشاعة مناخ المواجهات والصراعات في عالم يسوده نظام عالمي جديد تؤدي فيه دور الحكَم والمقرر، وتفيد من حسم هذه الصراعات والمواجهات بحلّها بطريقتها الخاصة، وهو حلّ يكفل مصالحها الدنيوية، ويحقق مراميها القريبة والبعيدة، ويفرض في نهاية المطاف قيمها لتي تسوّغ سيادتها وهيمنتها على سائر العالم، بما في ذلك الغرب الأوروبي نفسه، وباقي حلفائها في شرقي آسية واليابان وكوريا الجنوبية وأسترالية.

ويبدو أن فرصة الولايات المتحدة الأمريكية الكبرى قد جاءت مع انفجارات أيلول التي استهدفت ثلاثة رموز من رموز النظام العالمي الجديد: **الرمز الاقتصادي المتمثل بمركز التجارة العالمية والرمز العسكري المتمثل بوزارة الدفاع الأمريكية (مبنى البنتاغون)، والرمز السياسي المتمثل بالبيت الأبيض** والذي قدّر له أن ينجو منها في آخر لحظة، وكانت الرسالة الصادرة عن هذا المركز من سيد النظام العالمي الجديد إلى سائر العالم شعوباً ودولاً وأنظمة: إما أن تكونوا معنا أو ضدنا في الحرب على الإرهاب، وكان مما انطوت عليه هذه الرسالة أمراً، ينفذ دون اعتراض، بالإسهام في هذه الحرب الطويلة تحت لواء زعيمة العالم الحر، وأن على الجميع أن يمتثل، وإلا فإنه معرّض لأن يكون هدفاً من الأهداف اللاحقة، أو أن ينتظر دوره في قائمة الأهداف التي تخطها الإدارة الأمريكية، والتي تسعى فيما يبدو

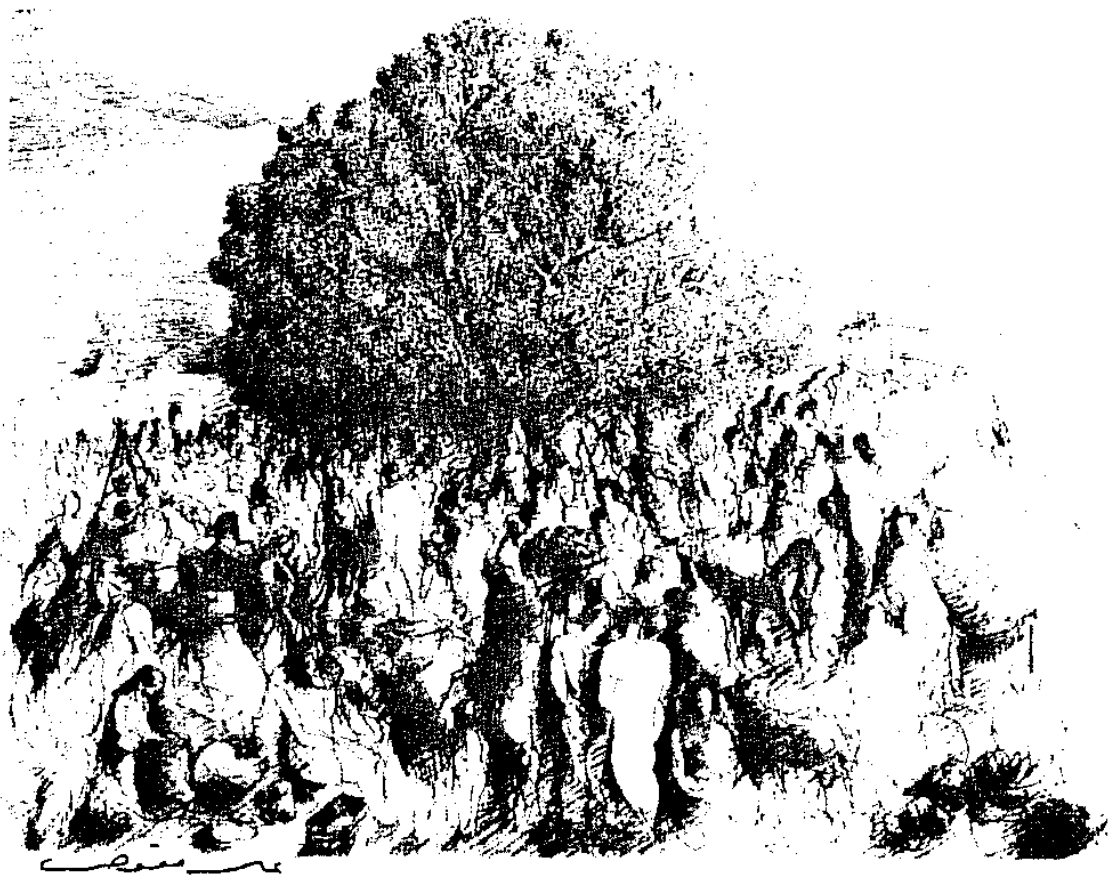

إلى إعادة ترتيب العالم على هواها محولة إياه إلى معسكرين: معسكر يعيث في الأرض تدميراً وقتلاً وحصاراً لما يروق له أن يسمه بسمة الإرهاب، ومعسكر خائف مترقب يسعى ليدفع عن نفسه التهمة - تهمة مناهضة المعسكر الأول الذي يغتنم الفرصة السانحة له ليصفي حساباته القديمة ويعيد كتابة التاريخ الإنساني، بل رسم الجغرافية البشرية، وتشكيل القيم الإنسانية التي ينبغي على إنسان الألف الثالثة أن يحيا بها ومن أجلها.

ولكن ما التأثير الذي خلّفه هذا الحدث الأخطر من نوعه في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، والذي غدا بسبب من نفوذها السياسي والعسكري والاقتصادي، الحدث الأخطر من نوعه في العالم الذي كان يقف على عتبات الألف الثالثة، ويتطلع إلى حياة أفضل في ظل ما يسمى بالنظام العالمي الجديد الذي أعلنه جورج بوش الأب في أعقاب غزو الكويت من جانب صدام عام ١٩٩٠، أقول ما التأثير الذي تركه هذا الحدث في العالم الإسلامي عامة، والوطن العربي خاصة.

لقد صحا المسلمون والعرب ليروا

أنفسهم صراحة أو ضمناً، مباشرة أو على نحو غير مباشر، عدواً صريحاً للغرب المنقاد بمرونة غريبة للإرادة الأمريكية التي انتشت بمابين يديها من قوة عسكرية واقتصادية وسياسية وتملكتها غطرسة القوة التي حذّرها منها ومنذ عقود السناتور الأمريكي ج.و. فولبرايت في كتابه الذي حمل العنوان نفسه: **غطرسة القوة**، وغدت نبوءة هنتغتون المشؤومة في صدام الحضارت حقيقة الألف الثالثة، تتصدر عناوين الصحف الرئيسية، وتزيّن خطب السياسيين في تأليبهم لمجتمعاتهم على العدو القديم/ الجديد، وتقفز من بين سطور المحللين السياسيين مذكرة بصدق صاحب النبوءة، على الرغم من كل ما يقوله الغرب (أو يقدمه، بأقصى ما لديه من براعة، على منصة السياسة الدولية من طقوس احترام الإسلام والمسلمين) عن عدم استهدافه للإسلام والمسلمين بحملته الشاملة على الإرهاب (ولكن كيف اتفق أن جميع الأهداف التي أثبتها قلم الإدارة الأمريكية أو صانع القرار الأمريكي في قائمة الإرهاب تقع في العالم الإسلامي).

لقد صحا العرب والمسلمون ليروا كذلك أن الحديث عن «**حوار الحضارت**» كان مجرد وهم جميل يسرّ للناس أن يناموا قريري العين لبعض الوقت قبل أن يتبيّنوا في صحوتهم التي تأخرت أن ضعفهم من جانب، وقوة الغرب من جانب آخر، غواية ليس من السهل على الغرب مقاومتها، إن الأمر كما يمكن أن يلخص بكل بساطة هو أن المواجهة مغرية أيّما إغراء لأن نتيجتها واضحة: **إنها غلبة الغرب الذي يكتب -ما دام القلم بيده- نفسه سعيداً، ويكتب سائر العالم، والمسلمين والعرب خاصة، من الأشقياء.**

وثانيةً ما الذي خلّفه هذا الحدث في ثقافة هؤلاء «الأشقياء»؟

غالباً ما تحتاج الثقافة إلى بعض الوقت حتى تستجيب وعلى نحو موضوعي للتغيرات السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية التي تعصف بالمجتمعات الإنسانية، ومع ذلك فقد **كانت استجابة الثقافة العربية سريعة نسبياً إلى أحداث الحادي عشر من أيلول، وقد تمثّلت هذه الاستجابة بجملة من المواقف تجاه الآخر، وتجاه الذات، وتجاه الموروث (بما في ذلك الموروث الديني)، وتجاه الواقع.**

الموقف تجاه الآخر:

و«الآخر» هنا هو الغربي/ المسيحي (واليهودي) المقيم في بلدان الغرب المتقدمة تقنياً ولا سيما الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبة الغربية، والمتفوقة علمياً ومعرفياً وثقافياً وفنياً، والرافلة في أثواب الغنى والرفاهية والوفرة، والمتسنّمة ذروة

السلطان السياسي والعسكري والاقتصادي في عالم «النظام العالمي الجديد»، والفخورة بما حققته خلال القرون الأخيرة ، وما تحققه اليوم، وما تعد بتحقيقه في الغد، من كل ضروب التقدم العلمي والتقني وما تيسّره للمقيمين فيها من فرص عمل وتعليم ورعاية صحية واجتماعية وتنمية متكاملة على مختلف الصعد. ومواجهة هذا «الآخر» في أي حوار أو مناقشة أو الدخول معه في أية مناظرة ليست من الأمور التي يغبط المرء عليها نفسه، وبخاصة عندما يقف فيها موقف الضعيف الفقير العاجز الذي لا يملك من أمر نفسه أي شيء؛ صحيح أنه يملك ماضياً لا يزال ألقه يعمر ذاكرته، بل ذاكرة العالم أيضاً، ولكنه ضعيف الإيمان بهذا الماضي وبقدرته على أن يمدّه بالإلهام الذي يحتاجه لبناء حاضر أفضل ومستقبل يتطلع إليه أبناؤه، وبالتالي فإنه إذ يقارن حاضره البائس، بكل ما ينطوي عليه من دواعي اليأس والاستسلام، بحاضر الآخر الواعد بكل تقدم وازدهار، يجد نفسه في موقع المعتذر دائماً عن ماضيه الذي لم يستمر، وحاضره الذي يقف على النقيض من حاضر الآخر ومستقبله الملفع بالغيب والذي لا يدري عنه أي شيء، وكيف له أن يدري وكل شيء فيه مرهون بإرادة الآخر، الصديق والعدو في آن معاً.

ولهذا تراه مشغولاً بالدفاع عن نفسه التي باتت موضع اتهام من جانب «الآخر» في كل ما فعلته في ماضيها، وتفعله في حاضرها، وما يمكن أن تقدم على فعله في مستقبلها، وبات عليها أن تدلّل له أنها غيرما يبدو له، وأن ثمة سوء تفاهم ناجم عن تدخل وسيط غير نزيه أراد ويريدأن يفسد العلاقة بينهما، وأنها تقاسمه الكثير من القيم التي يفخر به ويسعى إلى نشرها وحسبه أن يقرأ سجلات ماضيها العريق حتى يتبين تمسكها بهذه القيم، وأن ما تقوم به فئة منشقة من أفعل لا يمثلها ولا يمثل أهلها، فهي لا تكنّ له أي عداء، ولا تبحث معه عن أية خصومة، بل إنها ستكون له أكبر عون على عدو الإنسانية الأكبر: الإرهاب العالمي،الذي تعلن براءتها منه أمام الله وعباده، وبين يدي سادة العالم الجدد، وأنها ستفعل كل مايطلبه منها لتحطيم بناه التحتية، وتجفيف مصادر تمويله، والتغيير الجذري لمناخاته بما في ذلك المناهج الدراسية التي يُنشّأ عليها أبناء العرب والمسلمين، حتى يُصنَعوا على عين الغرب، نسخة مطوّرة على النحو الذي يشاء، ناسين أو متناسين، جاهلين أو متجاهلين ، أنهم قد نشئوا أصلاً على نظام تعليم لم يكن غير نسخ ومسخ للنظام الغربي الذي شهدوا نسخة بائسة منه في زمن الاحتلال الاستعماري الذي جاء بعد فترة الانكفاء

على الذات والضعف خلال القرون العثمانية وبخاصة الأخيرة منها، ثم حاولوا محاكاة مظاهرها وشكلياتها وطقوسها دون أن يفكروا ولو لحظة واحدة في جدواها.

الموقف من الذات:

وأما الموقف من الذات فقد كان موقف القلق الخائف، المشكك، الذي لا يملك ذرة إيمان بها، غير ما تفرضه عليه الأيديولوجيات الطوباوية التي أدارت ظهرها للواقع، وعاشت في عالمها البديل لكل ما تأباه وتبغضه في هذا الواقع من تفكك وخضوع وظلم اجتماعي، إنه موقف المتفحص لهذه النفس بعمق، والمسائل لكل ما تأتيه من فكر وقول وعمل، بغرض معرفتها على نحو أفضل،والتحقق من أنها ليست كما يزعم الآخر قد فطرت على التفكير «الأصولي» (بالمعنى الذي حدّده الأمريكيون لهذا المصطلح)، وأنها ذاتٌ سويّة لا تعرف التعصب، ولا تكنّ غير الود والمحبة للآخر، ولا تضمر له أي شر، وأنها على غير ما يروّج له أعداؤها من عتاة المستشرقين من أمثال برنارد لويس وحوارييه الذين فتنوا بنظرياته وتفسيراته العنصرية البغيضة، ما كرهت في يوم التقدم والتطور والتحديث، وأنها مغرمة بالديمقراطية التي تسعى إلى استكشافها على نحو جدي، وأن نفسها تتوق إليها بل إنها لتتطلع إلى مستقبل تراها فيه جزءاً أساسياً من ثقافتها وتربيتها. وهي كذلك مولعة بحقوق الإنسان التي نادى بها الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، وكفلها للمسلمين وغيرهم في المجتمعات الإسلامية التي جهدت للحفاظ عليها، وأنها،وأنها..، وعينها في كل ما تتوق إليه في هذه الذات، وما تطمح، هو «الآخر»وما يحبه وما يكرهه فيها، وما يريده لها أن تكون، ولعلها في عمق أعماقها تتمنى لو كان هذا«الآخر» يمتلك حرفي الكاف والنون فيصورّها من جديد على النحو الذي يشاء فيرتاح وترتاح من هذه المعاناة.

الموقف من الموروث:

وأما الموقف من الموروث (الديني وسواه)فقد كان السعي الحثيث لاستصدار صك براءة له من كل ما ينسب إليه من تربة خصبة للإرهاب، وبيان أنه ليس على شيء مما يدعونه به، وأن الأمر كله عائد إلى ضيق أفق المفسّرين، فالجهاد ليس إلا جهاد النفس والهوى، ودار الإسلام ودار الحرب مقولتان عفا عليهما الدهر، ولا سيما أن المسلمين قد باتوايعيشون في قلب الغرب، والإسلام دين التسامح والمحبة والسلام، وأن مكانة «الآخر» فيه معتبرة لا يدانيه فيها حتى المسلم نفسه، وغير ذلك مما يدخل في عملية تجميل هذا الدين الحنيف

في عيون الغرب، بعد أن رأى الغرب، فيما يبدو، من بعض أتباعه ما يكره على يد أسامة بن لادن والقاعدة والطالبان ومن لف لفّهم، وقد كانوا من قبل من الأثيرين لديه، بما قدموه من خدمات وبخاصة في قتالهم لعدو الغرب الأكبر في زمن الحرب الباردة- الاتحاد السوفياتي والدول الموالية له.

الموقف من الواقع:

وأما الموقف من الواقع فتمثل في التفكير الجاد في تغييره وإصلاحه والانتقال به من وضعه المزري في كل الوجوه إلى وضع أفضل، ليس بغرض تحسين شروط الحياة الإنسانية بمختلف وجوهها لمن عانى ما عانى من ظلم واضطهاد وحرمان وقهر خلال قرون الحكم الأجنبي، وما تلاه من أنظمة الحكم الوطنية التي «حررت» الأوطان من قبضة الغاصب المحتل، وإنما بغرض إرضاء «الآخر»الذي ضاق ذرعاً بما يزعم من إصرار العرب والمسلمين على تخلّفهم، وبعنادهم الذي لا يصدق على عدم السعي إلى مجاراة الغرب في التقدم بسبب ما تنطوي عليه عقيدتهم وثقافتهم ومجتمعاتهم من أسباب التخلف والجمود والخنوع، وكأنه لم يكن له في يوم أي يد سوداء في هذا التخلف وذاك الجمود وذلك الخنوع، وأمثولة هذه الثقافة فيما تطمح إلى بلوغه هو «الآخر»، الذي هو المثال والمآل، وما يضعه ويحدّده من شروط ومواصفات مستمدة من أنموذجه الذي اختاره لنفسه انطلاقاً من واقعه وطموحاته، غدت المعيار والمقياس والمسطرة التي تقاس بها الأشياء والميزان الذي توزن به فيعرف غثها من سمينها، ساميها من وضيعها، مفيدها من ضارها، تقدمها من تخلفها..إلخ.

وكانت هذه المواقف جميعها محكومة بتكافؤ الضدين على كل المستويات فعلى الرغم من كل ما تبديه هذه الثقافة من مرونة تجاه الآخر، نراها في أعماقها ترفضه وترفض منطقه ومعاييره المزدوجة، وترى أنه غير صادق في كل ما يزعم وأنه في نهاية المطاف معنيّ بمصالحه القريبةوالبعيدة وأنه لا يريد لها أي خير.

وعلى الرغم من كل ما تبديه هذه الثقافة من مساءلة للنفس، فإنها تعرف أنها مكرهة على هذه المساءلة بالظروف والشروط التي وضعها فيها «الآخر»،وأنها إنما تستولد ما يرغب فيه ولادة قيصرية، وأن ما ستنتجه ربما يكون حصيلة حمل آثم تم عن طريق الأنابيب.

وعلى الرغم من كل محاولات الغرب إعادة تفسير الموروث الديني بغرض

استصدار صك براءته مما ينسبه الغرب إليه، ثمة إيمان عميق بهذه البراءة التي لا يحتاجها، ألا يكفيه أن الإسلام قد حافظ على نفسه أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، وأنه يزداد انتشاراً حتى في مجتمعات «الآخر»؟ ، إن المسألة ليست إلا مسألة وقت، ولا بد من أن يأتي يوم يسود فيه الإسلام من جديد، وإنّ غداً لناظره قريب، واللّه وعد بأنه نزّل الذكر وأنه له حافظ: «إنّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» (**القرآن الكريم**، سورة الحجر، الآية ٩).

وعلى الرغم من التفكير بتغيير هذا الواقع وإصلاحه، فإن الشعور العام السائد هو أن ذلك لن يكون سهلاً، وأنه يتطلّب وقتاً وجهداً، وأنه في نهاية المطاف ينبغي أن يكون محفوزاً بعوامل داخلية، وليس بمحفِّزات خارجية، وأن الغاية منه ينبغي أن تكون الارتقاء بجميع وجوه هذا الواقع، وأن إكراهه على التغيير بالصورة التي يريدها الآخر سيكون لا محالة وخيم العواقب.

إن الناظر إلى مختلف النشاطات الثقافية في كل المجالات وما ينجم عنها من نتاجات مسموعة، أو مرئية، أو مقروءة، أو متعددة الوسائط، سوف يرى أنها مؤسسة على هذه المواقف، وأنها محكومة بتكافؤ الضدين، وسبب ذلك فيما يبدو لي ، أنها قائمة على الجهل: الجهل بالنفس، والجهل بالآخر، والجهل بالعالم، **وأن السبيل الأجدى في معالجة الشأن الثقافي في الوطن العربي هو الانطلاق من الفهم المؤسس على المعرفة: معرفة الذات، وبالآخر، وبالعالم. عندها فقط يمكن أن تكون علاقتنا بأنفسنا، وبالآخر، وبالعالم علاقة مصالحة ووئام، والناس أبداً أعداء ما جهلوا.**

❖ ❖ ❖